

كلمة الدكتور إبراهيم الجعفري في المؤتمر الوطني لشباب العراق 2012/2/18

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..

جاء في كتاب الله العزيز:

((قالت إحداهما يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)).

شابة تكلم أباه، وتشير إلى شاب آخر، أما الشابة فهي بنت نبي الله شعيب تحدّثه عن شاب آخر إنه رسول الله موسى (عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام)، وتضع معياراً يأبى إلا أن يبقى مُدوياً في كل مجتمع ينشد تحقيق العدالة: ((إن خير من استأجرت القوي الأمين)).

قوة وأمانة وتقدّم في التقويم... نعيش وإياكم في زمن ثورات انطلقت من أرض تونس، واستلهمت أرض الكنانة، ثم عبرت إلى ليبيا، وها هي اليوم تستعر في أكثر من بلد من بلدان العالم.. لقد طوّحت هذه الثورات الشبابية برؤوس الطغاة الذين جثموا على صدر شعوبهم، أو على صدور شعوبهم، وأطاحت بأولئك الرؤساء الذين استبدّت بهم عقدة التأبّد في الحكم، وعقدة التوريث بعد الموت لأبنائهم.

طوّحت بالأنظمة التي استلبت أموال الناس، وبدّدت ثروات البلد، وجمعت على حساب الشعوب عشرات المليارات من الدولارات.. طوّحت بتلك الأنظمة التي استخدمت الأجهزة القمعية لسلب الحريات.. أولئك الذين لم يكن لهم رصيد من الثقافة، ولا رصيد من القيم، وعلى الرغم من ذلك بقوا مدة طويلة من الزمن.

ما كان على شباب اليوم إلا أن يشمّروا عن ساعد الجد، وينطلقوا بثورة تزلزل الأرض من تحت أقدام هؤلاء.. فارتبط حاضِر الشباب بماضيهم تماماً.. إنه الوعد الذي قطع ما من ثورة إلا والشباب سرّ انطلاقتها، وسرّ ديمومتها، وسرّ انتصارها، فلم تكن الثورات المعاصرة التي عشناها في عام 2011 وإلى اليوم، خارجة عن القياس، إنما كان الشعار الذي دوّت به حناجر الشباب: (الشعب يريد تغيير النظام).

اليوم ذهب زين العابدين بن علي، وذهب نظامه، وذهب حسني مبارك، وذهب معمر القذافي... ماذا بعد ذلك، هل إنها رحلة من النظام إلى اللانظام، أم إنها رحلة من نظام فاسد إلى نظام أفسد، لا يمكن أن تقوم الدولة إلا بنظام، فليست المشكلة أن نواجه نظاماً مطلقاً إنما المشكلة عندما يكون النظام نظاماً دكتاتورياً متعسفاً استعماريّاً مرتعناً بإرادة أجنبية من خارج الحدود.

وماذا بعد ذلك... يُفترض أن نطرح شعار: (الشعب يريد النظام البديل، والشعب يريد النظام الصالح)، أما المجتمعات والبلدان التي لم تتغير أنظمتها، فلا يعني أنها بمنجى

عن وجود الفساد في بعض جوانبها؛ لذا يجب أن تتعالى شعارات الشباب: (إن الشعب يريد إصلاح النظام).

أما تغيير النظام، أو إحداث تغيير في النظام، والنظام البديل، فهو قائم على عناصره المهمة وهي دولة الدستور، والتمثيل النيابي، والحكومة، والسيادة، والبنية التحتية، والحريته التامة للتعبير عن الرأي، عندئذ نكون قدّمنا نظاماً بديلاً، وكل هذه العناصر عناصر تتحرك ليست جامدة، تتحرك مع الزمن، تتجدد مع الزمن مع الحفاظ على أصالتها وثوابتها الدستورية، والبرلمانية، والنمطيات التنفيذية المختلفة، تتطور مع الزمن، ودستور يُكتب في وقت ما يعبر عن مستوى من الوعي والثقافة بما تفرزه عقول الناس بالمُجمل، وحين تتطور العقلية المجتمعية العامة ستعكس دورها على شكل فكر يأخذ طريقه إلى الدستور، وعلى شكل سلطة تشريعية، أو نمطية تنفيذية في الحكومة، غير أن الشعب تتطور ثقافته كبنية تحتية، وما إن تتطور ثقافته إلا ويعكس هذا التطور على بُناه الفوقية فكرية كانت على مستوى التنظير أو التنفيذ؛ لذا لا يتبدل الدستور بكل مواده إنما يتبدل بين فترة وأخرى، وقُل مثل ذلك في البرلمان، والحكومة وفي كل شيء.

الشباب هم الذين يملكون سرّ التحول، والسبب في ذلك عندما نخطب الشباب نخطب الكم الأكثر في المجتمع، فعندما تكون نسبة الشباب في بلد من البلدان أكثر من 50% على اختلاف التعريفات التي وردت سواء كانت في الأمم المتحدة، أو في المنظمات الأخرى بتعريف الشاب هل هو من سن 15 إلى 29 أو أكثر، من ذلك تبقى نسبة الشباب هي الأكثر من الناحية الديمغرافية، وليست المسألة مسألة كم بشري إنما مسألة النوع البشري.

الشباب له من الإرادة والتحرر من العُقد الماضوية، والتطلع إلى المستقبل ما يجعله مؤهلاً لأن يضحّي من أجل الجديد، ويهتم بالجديد، ويضحّي من أجل كسر القيود السابقة؛ حتى يمضي في عملية البناء والتنمية... المسؤولية اليوم مُلقاة على كل شبابنا بمختلف مناطق العالم بأن يحولوا الشعارات السابقة: (الشعب يريد تغيير النظام)، إلى شعارات جديدة تنبض بالحيوية، وتعد ببناء الأنظمة البديلة.

ما هو البديل عن تلك الأنظمة المُزَيّفة ... كيف نصنع البديل... كيف نتعامل مع البديل... كيف نحول ثروات البلد من خزينة الحكومة إلى جيوب الناس في كل بلدان العالم العربي والإسلامي... كيف نفعل ذلك، نحتاج إلى ثقافة وإرادة وتضحية، يشتهب من يتصور أن الثورة تنتهي بانتصارها بإسقاط القادة المتسلطين عليها هذا اشتباه إلى حدّ كبير.. الثورة تبقى مستمرة مادام الشاب مثقفاً، ومادام ملتزماً ومناضلاً، ومادام شجاعاً.

يجب أن يواصل مسيرته؛ حتى يحقق آخر أهداف شعبه، الثورة الواعية التي يبينها الشباب بعقولهم المتنوّرة، وبقلوبهم الواسعة الكبيرة يفهمون شيئاً اسمه تنمية وبناء لا يفهمون معارك جانبية، ويكفرون بمقولة: (إن الثورة تأكل أبناءها)، ويؤمنون بأن (الثورة تحتضن أبناءها، وتحب أبنائها الثائرين).

مثلاً للشباب إرادة قوية، ويعمل من أجل انتصار أهدافه، وعقل متنوّر بالفكر فله قلب مُفَعَّم بالعواطف والأحاسيس، لا يمارس عملية الثورة من موقع الحق، إنما هو يكره ويرفض الانحراف، ويصر على البناء والاستقامة؛ لذا وقف الشباب بقلوبهم الطاهرة حصناً منيعاً للذود عن أهدافهم وأهداف شعبهم.

كل دول العالم اليوم تشهد تغييرات، وهذه الموجة يحركها الشباب، وقد راهن المراهنون على احتواء حركة الشباب، وراهن المراهنون على دسّ ثقافة جديدة تحوّل ثقافة التكامل إلى ثقافة القطيعة، كل التنوّعات التي تطفح اليوم على سطح الثورات وعلى مسارح التصديّ الجديد التي يتزعمها الشباب خالصة من عُقد الثنائيات المتقابلة، والمتناكدة، والمتلاعنة، والمتهاجرة، وخالصة من ثنائية الانتماء المذهبي، وثنائية القومية، وثنائية الجنس.

كل هذه الثنائيات تتكامل في عقل الشاب، وحين يكون الشاب متطلعاً متنوّراً يفقه معنى الثورة، ويفقه معنى أن أعداء الثورة هم الذين يقفون في طريقه للحؤول دون أن يحقق أهدافه المشروعة، هو الذي سيقود عملية الانتقال والنمو من الحسن إلى الأحسن.

العراق اليوم شئنا أم أبينا وعلى الرغم من كل ما يوجد على التجربة من ملاحظات، يقدّم نموذجاً إلى دول المنطقة بصورة خاصة وإلى دول العالم بصورة عامة، فمنذ 2003 عام السقوط وحتى يومنا، هذا قدّم سلسلة حكومات لم تتغيّر بآلية عسكرية، ولم يتم اعتقال الحكومات السابقة من قبل الحكومات اللاحقة، ولم تجر تصفيات جسدية، كما يحصل في بعض بلدان العالم، فالعراق إلى أمس القريب كانت فيه حكومة مجلس الحكم، ثم الحكومة المؤقتة، ثم الحكومة الانتقالية، والحكومة الحالية بدورتيها، وتواصل عملية نقل السلطة بطريقة سلمية من حكومة إلى حكومة أخرى بلا تأبّد لأي حاكم، ولا توريث من الحاكم لأبنائه.

الناظر بدقة إلى البرلمان العراقي، يجد أنه بمجموعه يمثل مجموع شعبنا بكل مكوناته القومية، والمذهبية، والدينية، والسياسية كل شريحة مجتمعية شقت طريقها إلى البرلمان، ومُجَمَّل هذه الكتل كذلك شقت طريقها إلى الحكومة.. هذا نموذج يشهده العالم اليوم.

المرأة في العراق أخذت طريقها إلى البرلمان، نعم تتعثر بعض الأحيان إذا ما قارناها بالدورات السابقة، غير أنها بكل تأكيد تسجل تقدماً ملحوظاً إذا ما قورنت بتجارب الحكم سواء كان في المنطقة، أو في مختلف مناطق العالم.. المرأة العراقية اليوم تتواجد، وتصوح بصوتها على منبر البرلمان، وشاركت في الحكومات، وتشارك في المؤسسات المختلفة، وتبرز في الإعلام، وتدلي برأيها، وتدوي بصوتها بشكل طبيعي إلى جانب أخيها الرجل، وتوفق بشكل متوازن بين الداخل المنزلي وبين الخارج المنزلي، بين الشأن الشخصي والشأن العام، وحين أقول الداخل المنزلي لا أعني بذلك ما يردده بعض المتخلفين بأن كلمة ربة البيت تعني التراجع، والهامشية، أنا أفهم أن ربة البيت مسؤولة مؤسسة؛ لأنني أعتقد أننا ما لم نمأسس العائلة، ونمأسس البيت سنفقد مستقبلنا.

الشباب الذي طالما قلت إنهم بُناة الحاضر، وليسوا بُناة المستقبل، والأطفال هم الذين سيتولون بناء المستقبل، فالمرأة هي التي تتولى بناء الشباب والأطفال، وهذا البناء لا بد أن يبدأ من البيت الذي يتولى صناعة الشباب والأطفال، ويكون مؤسسة لها قيمها وأفكارها ومبادئها.. بناء الدولة يتطلب حضوراً ونقداً بنّاءً، ولا ينبغي أن يتردد الشاب في أن يدلي بصوته مرة يثبت الحكومة فيما هي فيه من صواب، وأخرى ينتقد الحكومة فيما عليه من خطأ.

لا توجد هناك عملية قمع، نعم.. قد يختلف البعض في تقييم التجربة بالعراق، لكنه لا يختلف في أن الحرية مفتوحة للجميع، والتعبير عن الآراء مفتوح للجميع؛ لذا على شبابنا - معقد آمالنا - ألا يترددوا في أن يصونوا العملية السياسية، ويواصلوا دورهم في البنية التحتية الحقيقية فالحكومات لها أمد وتنتهي، والحكام لهم أمد وينتهون، أما الشعب فهو العنصر المستمر، والمتواصل، والباقي.

الدول التي انتقلت من مرحلة إلى مرحلة أخرى، تعرّضت لحروب أهلية في مختلف مناطق العالم: (الثورة البلشفية في روسيا 1917، والثورة الصينية في 1949، وكذلك الثورة البريطانية في 1688، والثورة الفرنسية تعرّضت إلى حروب محلية في 1789، والثورة الأميركية تعرّضت إلى حرب أهلية)... كل هذه الثورات تعرّضت إلى حروب أهلية، إلا أن العراقيين أثبتوا أنهم شعب لا يتقبل الحرب الأهلية، وقد بذلت جهود ليست قليلة من الخارج العراقي لتحريك بعض عناصر السوء، وافتعال حروب إقليمية وقومية وطائفية بين أبناء الشعب، لكن شعبنا ردّ بكلمة واحدة بأنه لا يفرّق بين عراقي وعراقي آخر.

دونكم التجربة الأخيرة التي حصلت في أربعينية الإمام الحسين (عليه السلام)، حين امتزجت دماء (نزهان الجبوري) وهو من إخواننا السنة من كركوك، و(علي سبع) من الجنوب وهو من أبنائنا الشيعة، للدفاع عن الذين يُحيون الشعائر الحسينية في الناصرية... أي جواب عملي نقدّم أبلغ من هذا الجواب.

موقف نزهان يذكرني بموقف عثمان العبيدي عام 2006 في حادث جسر الأئمة، وقد راهن الكثيرون على أن جسر الأئمة الذي أودى بحياة 1000 شهيد سيُورث فتنة تبدأ طائفية لتنتهي بحرب أهلية، غير أن أبناءنا وبناتنا ذهبوا إلى مراكز الاقتراع، وصوّتوا في الانتخابات وإقرار الدستور، وقد سمع العالم كله صوت العراق الموحد.

المطلوب من شبابنا اليوم أن يتصدى، ليس فقط بالجانب الكمي، إنما في الجانب النوعي.. فلتفتح الجامعات أبوابها لاستقبال أبنائنا وبناتنا.. ولتفتح دوائر الدولة أبوابها لاستقبال الخريجين من أبنائنا وبناتنا؛ حتى نضع العراق على مشارف مرحلة جديدة... الشباب النوعي هو الذي يبني العراق بناءً حضارياً يربط تاريخه بحاضره، ويثبت ذلك، ويستشرف المستقبل، فكل شيء في العراق يدعو إلى الصعود، وكل شيء في العراق يذكرنا بأن العراق لا بد أن يحتلّ موقعه المتقدم.. لا أقول ذلك من عُقْدة الإقليمية إنما من قراءتي الموضوعية.

كنا في التاريخ على موعد مع القدر بأن يكون العراق مهد الحضارات، حتى إنك إذا أردت أن تقرأ العراق عليك أن تتسلّق إلى قمم التاريخ، وتمسّ تخوم الحضارة، فتجد العراق هناك منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد.. العراق مولد الحضارة في الناصرية والعمارة والبصرة، وقُلّ مثل ذلك في أربيل وفي مختلف مناطق العراق، نريد من شبابنا أن يقرأوا تاريخ العراق من دون أن تتحوّل قراءة التاريخ إلى عُقْدة ماضوية، إنما تكون قراءة تضع يدها على سرّ النجاح، والديمومة، والارتقاء التي يدّخرها العراق في تاريخه المُوغل في القدم؛ حتى نستطيع أن نعبر من ذلك التاريخ القوي لبنني حاضراً قوياً، ونحوّل من الحاضر القوي إلى المستقبل.

شبابنا هم معقد آمالنا، وهم الذين يُتوقَّع منهم أن يبنوا دولة القانون.. الشباب الذي يُصر على العمل بالدستور، وتغيير الدستور، ولا تناقض في ذلك؛ فكل دول العالم غيّرت دساتيرها، ولا توجد دولة جمدت على النسخة الأولى من الدستور، ليس من موقع الاختراق، ولا من موقع التعطيل.. نحن نلتزم بالدستور وحين نجد ثمة نقص أو خلل، أو مادة استنفدت أغراضها علينا أن نبذلها.. نريد من شبابنا أن يعملوا على مأسسة أجهزة الدولة بالكامل، نمأسس العمل، ونقضي على ظواهر الفساد المختلفة.

علينا ألا نتكلم، وندوّي بصوت الإصلاح فقط إنما لا بد أن نحول الإصلاح إلى آليات نلاحق المُفسد، وتعلمون جيداً أن الفساد في البناء والأموال المادية غير الفساد في السلوك والقضايا الاجتماعية... الفساد السياسي والاجتماعي يُخفي جيشاً من الفاسدين، وهؤلاء سيواجهون كل عملية إصلاح بمختلف الذرائع؛ لأن مصالحهم تضررت.

من أبرز مظاهر البلد الذي يعيش الإصلاح هو تحكيم الدستور، وفصل السلطات الثلاث (القضائية، والتنفيذية، والتشريعية)... يجب أن يُطبّق الدستور العراقي، وإذا

اكتشفنا وقد تم اكتشاف بعض نقاط الضعف، فيه فليس لنا إلا أن نبذل الدستور، لكن بطريقة دستورية.

تجربة العراق اليوم مؤهلة لأن تستلهم من دول العالم خصوصاً التي دخلت اليوم توأ إلى حياض الدول الديمقراطية، وإذا كان العراق على موعد في الشهر المقبل مع عقد مؤتمر القمة العربي، فستكون الجامعة العربية بهذا الانعقاد ليس مع بغداد التاريخ، كما عبّر عنه (سرجون الأودي) عام 2230 قبل الميلاد، بأن من يحكم قبة العالم يتحكم برياحها الأربعة، ليس فقط بغداد دولة حمورابي سابقاً، والتي كتب فيها مسلته المعروفة، إنما بغداد ذات النظام الديموقراطي التداولي الذي تتحوّل فيه السلطة بطريقة سلمية، ويُطبّق فيه القانون، وتُحترم فيه كل المكونات.

نحن نقدر أننا مانزال بعيدين عن طموحاتنا، إلا أن البركة بكم بأن تمثلوا النسق الصاعد، وترفعوا أصواتكم، وتحدثوا بالهواء الطلق لتمارسوا عملية بناء العراق باعتباركم البنية التحتية نساءً ورجالاً. تحياتي، وتمنياتي لكم بالموفقية، والنجاح لمؤتمركم هذا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.